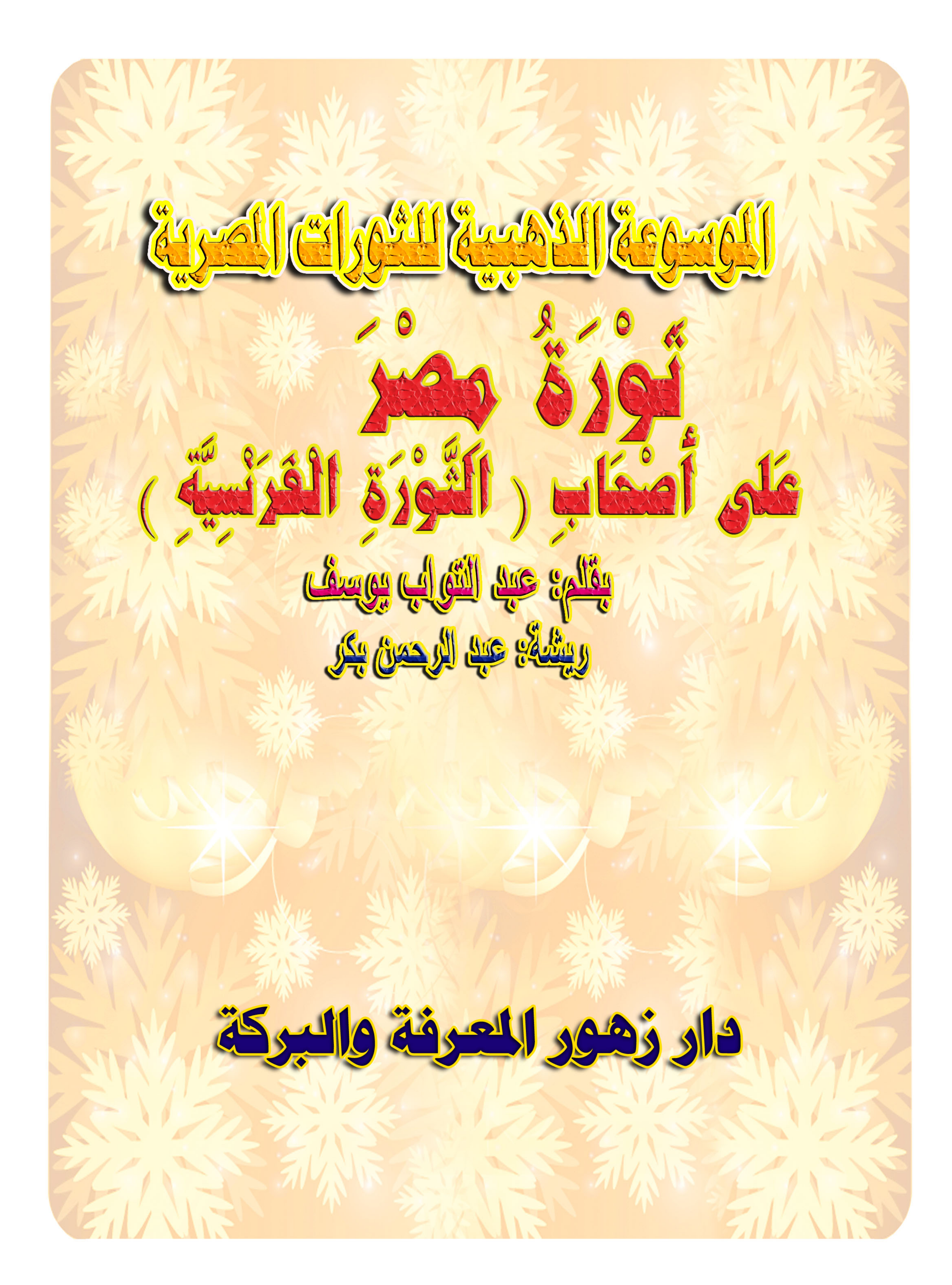


الموسوعة الذهبية للثورات المصرية

ثَوْرَةُ مِصْرَ
عَلَى أَصْحَابِ (الثَّوْرَةِ الفَرَنْسِيَّةِ)

بقلم: عبد التواب يوسف

ريشة: عبد الرحمن بكر

دار زهور المعرفة والبركة



الموسوعة الذهبية للثورات المصرية

تأليف:
أ/ عبد التواب يوسف

رسوم واخراج فني:
عبد الرحمن بكر
اسكتشات معارك:
د/ ياسر نصر
تلوين: محمد حسن

دار زهور المعرفة والبركة

مُقَدِّمَةٌ صَغِيرَةٌ:

كُنْتُ أَجْلِسُ إِلَى جَانِبِ نَافِذَةِ أُتُوبِيسٍ سِيَاحِيٍّ يَطُوفُ بِنَا بَارِيس فِي أَوَّلِ يَوْمٍ لِزِيَارَتِي لَهَا وَبِجَانِبِي سَيِّدَةٌ أَمْرِيكِيَّةٌ ضَخْمَةٌ وَخِلَالَ الْمَايكْرُوفُونِ كَانَ هُنَاكَ شَرِيطٌ تُحَدِّثُنَا مِنْ خِلَالِهِ الْمُذِيعَةُ عَمَّا نَرَاهُ وَنُشَاهِدُهُ، قَالَتْ فِي صَوْتٍ حَرِيرِيٍّ يَبْطُنُهُ الْفَخْرُ وَالاعْتِزَازُ:

- هُنَا كَانَ الْبَاستيلُ، السِّجْنُ الرَّهِيبُ

مَالَتْ عَلَيَّ السَّائِحَةُ الأَمْرِيكِيَّةُ لِتَطُلَّ مِنَ النَّافِذَةِ، كَادَتْ تَكْسِرُ عِظَامِي وَهِيَ تَقُولُ: أَيْنَ هُوَ الْبَاستيلُ؟

قُلْتُ لَهَا: هَدَمُوهُ، كَمَا تَفْعَلِينَ بِي سَيِّدَتِي وَبَقِيَتْ مِنْهُ بِضْعَةُ أَحْجَارٍ رَمْزِيَّةٍ.. أَلَمْ تَقْرَئِي شَيْئًا عَنِ الثَّوْرَةِ الْفَرَنْسِيَّةِ؟

أَزَاحَتْ يَمِينِي جَسَدَهَا لأَتَنَفَّسَ الصَّعْدَاءَ.

أَعْرِفُ أَنَّكُمْ قَرَأْتُمْ فِي كُتُبِكُمْ عَنْ هَذِهِ الثَّوْرَةِ الرَّائِعَةِ، وَنَحْنُ هُنَا لا نَحْكِي لَكُمُ التَّارِيخَ، بَلْ نَضَعُهُ أَمَامَكُمْ لِكَيْ تُفَكِّرُوا فِيهِ تَتَمَعَّنُوا فِيهِ بَاحِثِينَ عَنْ طَرِيقٍ لِلْمُسْتَقْبَلِ وَسَوْفَ نُنْعِشُ ذَاكِرَتَكُمْ بِذِكْرِ بَعْضِ أَحْدَاثِهَا كَمَا فَعَلَتْ جَارَتِي فِي الأُتُوبِيسِ.

قَامَتِ الثَّوْرَةُ الْفَرَنْسِيَّةُ سَنَةَ 1779م ضِدَّ الْمَلِكِ لُويس السَّادِسَ عَشَرَ وَزَوْجَتِهِ مَارِي أَنْطُوانِيتْ- لاحِظُوا الرَّقَمَ: كَانَ هُنَاكَ 16 لُويس حَكَمُوا فَرَنْسَا وَاحِدًا بَعْدَ الآخَرِ..

تَعْرِفُونَ الْكَثِيرَ عَنِ الثَّوْرَةِ الْفَرَنْسِيَّةِ وَعَنْ حَمْلَةِ نَابِلْيُونَ بُونَابَرْت وَالْجَيْشِ الْفَرَنْسِيِّ عَلَى مِصْرَ بَعْدَ سَنَوَاتٍ قَلِيلَةٍ مِنْ قِيَامِ هَذِهِ، لَنْ نُكَرِّرَ مَا عَلَّمْتُمُوهُ مِنْ دُرُوسِ التَّارِيخِ فِي الْمَدْرَسَةِ.. فَقَطْ، سَنَحْكِيهِ بِطَرِيقَةٍ مُغَايِرَةٍ.

قَرَأْتُمْ وَعَرَفْتُمْ أَنَّ ثَوْرَةً عَظِيمَةً وَرَائِعَةً قَـــامَتْ فِي فَرَنْسَا عَامَ 1779م، وَأَعْدَمَتِ الْمَلِكَ وَالْمَلِكَةِ، وَأَعْلَنَتْ شِعَارَ " الْحُرِّيَّةُ ـ الإِخَاءُ ـ الْمُسَاوَاةُ "، وَبَعْدَ سَنَوَاتٍ قَلِيلَةٍ أَصْبَحَ نَابِلْيُونُ بُونَابَرْت حَاكِمًا وَإِمْبِرَاطُورًا لِفَرَنْسَا، وَإِذَا بِهِ يَقُومُ بِمُغَامَرَةٍ مِنْ مُغَامَرَاتِ الاسْتِعْمَارِ الْحَقِيرَةِ 1798م قَادَ جُيُوشَ فَرَنْسَا لِيَحْتَلَّ مِصْرَ وَيَقْطَعَ طَرِيقَ بِرِيطَانِيَا إِلَى الْهِنْدِ، وَتَعْرِفُونَ حِكَايَتَهُ جَيِّدًا مَعَ مِصْرَ حِينَ جَاءَهَا بِأُسْطُولِهِ وَمَعَهُ عُلَمَاءُ مَفْتُونُونَ بِحَضَارَتِهَا الْقَدِيمَةِ وَمَا زَالَ الْفَرَنْسِيُّونَ لِيَوْمِنَا هَذَا مَفْتُونُونَ بِهَا، وَظَهَرَ هَذَا فِي كِتَابِهِمُ الشَّهِـــيرِ " وَصْفُ مِصْرَ " وَيَتَمَنَّـــوْنَ أَنْ يَكْتُبَ لَهُـــمْ وَاحِدٌ مِنْهُـــمْ " وَصْفَ فَرَنْسَا " وَلَنْ يَحْدُثَ هَذَا؛ لأَنَّهُمْ لا يَمْلِكُونَ حَضَارَةً مِثْلَ حَضَارَتِنَا، وَفِي مُنَاسَبَةِ مُرُورِ 200 عَامٍ عَلَى هَذَاالْغَزْوِ الْفَرَنْسِيِّ دَعَا الْبَعْضُ إِلَى أَنْ " نَحْتَفِلَ " بِهَا؛

لأنَّهُ كَانَ بِدَايَةِ تَارِيخ مِصْرَ الْحَدِيثِ، وَالاحْتِفَالُ هُنَا لا يَعْنِي أنَّنَا نَذْكُرُ مَا حَدَثَ فِي ارْتِيَاحٍ وَفَرَحٍ ولَكِنْ لِكَيْ نَذْكُرَ كَيْفَ ثُرْنَا عَلَى أصْحَابِ الثَّوْرَةِ الْفَرَنْسِيَّةِعِنْدَمَا تَحَوَّلُوا عَنْ مَبَادِئِهِمْ لِيُصْبِحُوا غُزَاةً وَمُسْتَعْمِرِينَ..

رَحَّبَتِ الدُّنْيَا بِالثَّوْرَةِ الْفَرَنْسِيَّةِ، ولَعَلَّهَا لَمْ تَأسَفْ كَثِيرًا لإعْدَامِ مَارِي أنْطْوَانِيت الْمَلَكَةِ الَّتِي سَألَتْ عَنْ سِرِّ غَضَبِ الْفَرَنْسِيِّينَ وَثَوْرَتِهِمْ،



وَعِنْدَمَا أجَابُوهَا:

- هُمْ لا يَجِدُونَ الْخُبْزَ

قَالَتْ مَا حَفِظَ لنَا التَّارِيخُ:

- فَلْيَأكُلوا " الْجَاتوه ".

طَبْعًا قرَأتُمْ هَذَا لِذَا استَحَقَّتْ مَا جَرَى لَهَا وَلِزَوْجِهَا فِي ثوْرَةِ الشَّعْبِ، وَقدِ انْتَهَتْ حَيَاتُهُمَا وَحُكْمُهُمَا، ونَجَحَتِ الثَّوْرَةُ فِي ذَلِكَ.. وَالسُّؤَالُ:

- وَمَاذَا بَعْدَ هَذَا؟

تَمَكَّنَ نَابلْيُونُ بُونَابَرْت أنْ يُصْبِحَ إمْبرَاطُورًا وَحَاكِمًا لِيَقُودَ جَيْشَ فرَنْسَا وَأسْطولَهَا لِيَحْتَلَّ مِصْرَ.. وَسُؤَالٌ آخَرُ يُدَوِّي:

- وَمَاذَا عَنِ (الْحُرِّيَّةِ ــ وَالإِخَاءِ ــ وَالْمُسَاوَاةِ) ؟!

أمْطرَ أسْطولُهُمُ الإِسْكَنْدَرِيَّةَ بِقَنَابِلِهِ، يَهْدِمُهَا عَلَى أهْلِهَا، وَيُنْزِلُ مُشَاةَ الأَسْطُولِ لاحْتِلالِهَا، وَالْقَبْضِ عَلَى أبْطَالِ الْمُقَاوَمَةِ وَعَلَى رَأسِهِمُ الْبَطَلُ وَالزَّعِيمُ "" مُحَمَّدُ كُرَيمٍ "" وَيَطْلُبُونَ مِنْهُ أنْ يَفْتَدِيَ نَفْسَهُ بِالْمَالِ، وَكَانَ لَدَيْهِ مَا يُمَكِّنُهُ مِنْ إنْقَاذِ حَيَاتِهِ، لَكِنَّهُ رَأى فِي ذَلِكَ مَهَانَةً لا يَقْدِرُ عَلَيْهَا، ذَلِكَ أنَّهُ حَفِيدٌ لِشَعْبٍ نَجَحَ مِنْ قبْلُ فِي أسْرِ لُويسَ التَّاسِعَ مَلِكِ فرَنْسَا الَّذِي جَاءَ لِيَحْتَلَّ دِمْيَاط وَيَزْحَفُ لِيَحْتَلَّ بَاقِي مِصْرَ، وَإذَا بِأبْنَائِهَا يَتَصَدُّونَ لَهُ بِقِيَادَةِ الصَّالِحِ أيُّوبَ، وَيَمُوتُ قُبَيْلَ الْمَعْرَكَةِ

وَإِذَا بِزَوْجَتِهِ تَقُودُ الْمَعْرَكَةَ وَتَهْزِمُ جَيْشَ لُويسَ التَّاسِعِ وَتَأْسِرُهُ وَتَسْجُنُهُ فِي دَارِ ابْنِ لُقْمَانَ فِي الْمَنْصُورَةِ، وَتَفْرِضُ عَلَيْهِ دَفْعَ الْفِدْيَةِ.. وَدَفَعَهَا وَخَرَجَ مِنْ مِصْرَ مَهْزُومًا ذَلِيلاً.. وَفِي رِحْلَةِ الْعَوْدَةِ إِلَى فَرَنْسَا اتَّجَهَ لِيَحْتَلَّ تُونُسَ لَعَلَّ ذَلِكَ يُخَفِّفُ مِنْ مَشَاعِرِ الذُّلِّ غَيْرَ أَنَّهُ مَاتَ وَرَأَوْا تَكْرِيمَهُ فَأَطْلَقُوا عَلَيْهِ (سَانْت لُويس) .



وَصَلَتْ مُحَمَّدُ كَرِيْمِ إِلَيْهِ الْحِكَايَةُ وَهُوَ يَأبَى أنْ يَعِيشَ بِفِدْيَةٍ يَدْفَعُهَا لأَعْدَائِه، وَيَقْبَلُ أنْ يُصْبِحَ شَهِيدًا مُحَافِظًا عَلَى كَرَامَتِهِ وَآبَائِهِ..

هَذَا دَرْسٌ لِلأَبْطَالِ وَالثُّوَّارِ فِي كُلِّ الدُّنْيَا.. فَلا حَيَاةَ دُونَ كَرَامَةٍ، وَيَزْحَفُ نَابلْيُـــونُ إِلَى الْقَاهِـــرَةِ وَيُخْفِي أُسْطُــولَهُ فِي خَلِيجِ "أَبُو قِيرَ" لِيُحَطِّمَهُ الإِنْجِلِيزُ وَيَصِلُ الْغَازِي لِلْقَاهِرَةِ عَلَى رَأسِ أَصْحَابِ الثَّوْرَةِ الْفَرَنْسِيَّةِ، وَيَبْعَثُ بِجَانِبٍ مِنْ جُنُودِهِ لِيَمْضُوا جَنُوبًا لاحْتِلالِ " الصَّعِيدِ ".. هُمْ لا يَعْرِفُونَ " الصَّعَايِدَةَ " الَّذِينَ يُعْلِنُونَ عَنْ أَنْفُسِهِمْ فِي مُقَاوَمَةِ الْغُزَاةِ.



وَفِي بَنِي سُوِيفَ، عِنْدَ قَرْيَةٍ اسْمها "الفقاعي" يُلَقِّنُ فَتًى مِصْرِيٌّ صَغِيرٌ أَصْحَابَ الثَّوْرَةِ الْفَرَنْسِيَّةِ دَرْسًا لا يَنْسَى، نَرْجُو أَنْ تَكُونُوا قَدْ عَرَفْتُمْ حِكَايَتَهُ.. اسْمُهُ: عَبْدُ السَّتَّارِ آدَمُ..

هُوَ لَمْ يَسْمَعْ..

يَا هَذِهِ الدُّنْيَا أطلي وَاسْــــــمَعي

جَيْشُ الأعَادِي جَاءَ يَبْغِي مَصْرَعِي

لَكِنَّهُ بِوَعْيِهِ الْحَضَارِيِّ أَحَسَّ بِهَذَا الْمَعْنَى.. وَهُوَ رُبَّمَا قَدِ الْتَحَقَ بِمَا نُسَمِّيهِ الْكُتَّابَ وَحَفِظَ بَعْضًا مِنْ سُوَرِ الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ وَرُبَّمَا لَمْ يَلْتَحِقْ بِه.. لَكِنَّهُ قَدَّمَ نُمُوذَجًا فَرِيدًا لِمُقَاوَمَةِ الْغُزَاةِ..

- هَلْ سَمِعَ بِحِكَايَةِ مُحَمَّدِ كريمٍ؟
- لا نَدْرِي.. رُبَّمَا عَرَفَهَا كَمَا عَرَفَهَا الْمِصْرِيُّونَ جَمِيعًا.

لَكِنَّهُ قَامَ بِعَمَلٍ بُطُولِيٍّ عَرَفْنَاهُ مِنْ خِلالِ رِوَايَةِ الْفَرَنْسِيِّينَ لَهُ فِي كِتَابِ وَصْفِ مِصْرَ، وَهُمْ لَمْ يَكْتَفُوا بِالْحِكَايَةِ، بَلْ رَسَمُوهُ فِي لَوْحَةٍ رَائِعَةٍ تَنَاقَلَتْهَا كُتُبُنَا، وَتَمَكَّنَّا مِنْ أَنْ نُحَدِّقَ فِي مَلامِحِ وَجْهِهِ الأَسْمَرِ الْعَرِيقِ، فَقَدْ لَوَّحَتْهُ الشَّمْسُ، شَأْنُهُ فِي ذَلِكَ شَأْنَ أَبْنَاءِ الصَّعِيدِ..

لَقَدْ تَسَلَّلَ إِلَى خِيَامِ الْفَرَنْسِيِّينَ فِي مَهَارَةٍ وَاسْتَوْلَى عَلَى أَسْلِحَتِهِمُ الَّتِي يَقْتُلُونَ بِهَا الْمِصْرِيِّينَ

وَأعْطَاهَا لِرِجَالِ الْمُقَاوِمَةِ الْوَطَنِيَّةِ وَقَبَضُوا عَلَيْهِ فِي أَثْنَاءِ ذَلِكَ، وَعِنْدَمَا سَأَلُوهُ عَمَّنْ دَفَعَهُ لأَنْ يَقُومَ بِهَذَا رَفَعَ أُصْبُعَهُ السَّبَّابَةَ يَعْنِي :

- أَنَّ اللهَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى فِي سَمَائِهِ.

وَعَذَّبُوهُ كَيْ يَنْطِقَ بِاسْمٍ وَاحِدٍ مِمَّنْ سَلَّمَهُمُ السِّلاحَ فَرَفَضَ رَفْضًا بَاتًّا، وَحَكَمُوا بِجَلْدِهِ 40 جَلْدَةً عَلَى ظَهْرِهِ الْعَارِي.. وَتَحَمَّلَهَا الْبَطَلُ الْيَافِعُ، وَتَأَوَّهَ مِنْ قَسْوَتِهَا وَإِنْ لَمْ يَرْتَفِعْ صَوْتُهُ بِالصُّرَاخِ.. صَابِرًا، مِمَّا جَعَلَ الْقَائِدَ الْفَرَنْسِيَّ بِيلِيارِدَ إِلَى أَنْ يَقُولَ:

- إِنَّ أُمَّةً مِنْهَا هَذَا الصَّبِيُّ لا يُمْكِنُ أَنْ تَمُوتَ!

وَكَانَ صَادِقًا فِيمَا قَالَهُ عَنْ مِصْرَ وَابْنِهَا عَبْدِ السَّتَّارِ آدَمَ، وَعِنْدَمَا سَمِعْتُ حِكَايَتَهُ فِي الْمَدْرَسَةِ نَقَلْتُ الصُّورَةَ الَّتِي بِالْكِتَابِ عَلَى لَوْحَةٍ مِنْ وَرَقِ كُرَّاسِ الرَّسْمِ وَعَلَّقْتُهَا فِي غُرْفَتِي لَوْحَةً كَبِيرَةً تَحْمِلُ صُوَرَ أَبْطَالٍ عِظَامٍ مِنْ أَمْثَالِ مُصْطَفَى كَامِلٍ وَمُحَمَّدِ فَرِيدٍ وَسَعْدِ زَغْلُولٍ وَعَبْدِ النَّاصِرِ، وَآخَرِينَ..

هُوَ لا يَقِلُّ عَنْهُمْ، وَكُنْتُ أَتَطَلَّعُ إِلَى هَذِهِ اللَّوْحَةِ فِي إِعْجَابٍ شَدِيدٍ بِهَا، ذَلِكَ أَنَّنِي آمَنْتُ بِمَا قِيلَ:" الْحَقُّ مَا شَهِدَ بِهِ الأَعْدَاءُ " خَاصَّةً وَأَنَّ الْبَطَلَ الصَّغِيرَ مِنْ أَبْنَاءِ مُحَافَظَتِي

الَّتِي وُلِدْتُ فِيهَا وَتَعَلَّمْتُ فِي مَدَارِسِهَا عِنْدَمَا كُنْتُ فِي مِثْلِ عُمْرِهِ.

وَكُنْتُ أَثْنَاءَ الدِّرَاسَةِ أَسْأَلُ نَفْسِي:

• مَاذَا كَانَ يَتَوَقَّعُ الْفَرَنْسِيُّونَ وَهُمْ قَادِمُونَ عَلَى أَسْطُولِهِمْ مِنْ مَرْسِيلِيَا- الَّتِي بَدَأَتْ مِنْهَا الثَّوْرَةُ الْفَرَنْسِيَّةُ وَزَحَفَتْ إِلَى بَارِيسَ- وَحَاوَلَتُ أَنْ أَتَخَيَّلَ مَا كَانُوا يَنْتَظِرُونَهُ؟

لا شَكَّ أَنَّ كَثِيرِينَ مِنْهُمْ تَصَوَّرُوا أَنَّ أَبْنَاءَ مِصْرَ سَوْفَ يُرَحِّبُونَ بِهِمْ لِلتَّخَلُّصِ مِنَ الْمَمَالِيكِ وَالْعُثْمَانِيِّينَ، وَلا شَكَّ أَنَّهُمْ دَهِشُوا لِلْمُقَاوَمَةِ الشَّدِيدَةِ الَّتِي اسْتُقْبِلُوا بِهَا مِنْ جَانِبِ أَبْنَاءِ مِصْرَ الَّذِينَ تَصَدَّوْا لَهُمْ فِي الإِسْكَنْدَرِيَّةِ، وَعِنْدَمَا قَبَضُوا عَلَى قَائِدِهِمُ الْبَطَلِ مُحَمَّدٍ كرِيمٍ قَالُوا لَهُ:

• لَقَدْ أَمْسَكْنَا بِكَ وَالسِّلاحُ فِي يَدِكَ لِذَلِكَ نَحْتَرِمُكَ، فَأَنْتَ أَسِيرُ حَرْبٍ، وَلَنْ نُطْلِقَ سَرَاحَكَ إِلَى أَنْ تَدْفَعَ الْفِدْيَةَ مِنْ مَالِكَ الْوَفِيرِ.

وَصَعَقَهُمْ أَنَّهُ يَرْفُضُ..

• لَنْ أَشْتَرِي حَيَاتِي بِالْمَالِ.. لَنْ تَتَكَرَّرَ مِنَّا حِكَايَةُ لُويسَ التَّاسِعِ!

لِذَا نَعْتَزُّ بِبُطُولَتِهِ وَنَرْفَعُ صُورَهُ، وَنُقِيمُ لَهُ التَّمَاثِيلَ،

وَمِنْهَا تِمْثَالٌ رَائِعٌ بِحَدِيقَةِ الْخَالِدِينَ فِي الإِسْكَنْدَرِيَّةِ، وَكُلُّ مَنْ يَدْخُلُهَا مِثْلِي يَقِفُ عِنْدَ تِمْثَالِهِ مُحَيِّيًا عَظَمَةَ وَرَوْعَةَ مَا قَدَّمَهُ لِلْوَطَنِ.

لَمْ يَكُنِ الْفَرَنْسِيُّونَ يَتَوَقَّعُونَ هَذِهِ الْمُقَاوَمَةَ الَّتِي تَصَوَّرُوا أَنَّ الْجَمِيعَ سَيَسْتَسْلِمُ مَعَ إِطْلاقِ أَوَّلِ قَذِيفَةٍ مِنْ مَدَافِعِ الأُسْطُولِ، وَأَذْهَلَتْهُمُ الْمُقَاوَمَةُ وَبِالذَّاتِ مِنْ بَيْنِ هَؤُلاءِ الَّذِينَ سَبَحُوا فِي الْبَحْرِ حَامِلِينَ أَسْلِحَتَهُمْ لِتَخْرِيبِ سُفُنِهِمْ وَإِغْرَاقِهَا فِي الْبَحْرِ..

وَحَكَى الْمُؤَرِّخُ الْكَبِيرُ الْجَبَرْتِيُّ صُوَرًا رَائِعَةً لِلْمُقَاوَمَةِ وَقَدِ اضْطَرَّ نَابِلْيُونُ إِلَى أَنْ يُخْفِيَ سُفُنَهُ فِي خَلِيجِ " أَبُو قِيرِ " بَعِيدًا عَنْ أَنْظَارِ أَهَالِي الإِسْكَنْدَرِيَّةِ وَعَنْ أَعْيُنِ الأُسْطُولِ الْبِرِيطَانِيِّ الْقَوِيِّ سَيِّدِ الْبِحَارِ أَيَّامَهَا لَكِنَّ الْقَائِدَ نلسنَ عَرَفَ مَكَانَهُ فَحَاصَرَهُ وَأَغْرَقَهُ.. لِيُصْبِحَ الْجَيْشُ الْفَرَنْسِيُّ حَبِيسًا فِي مِصْرَ وَأُسْطُولُ إِنْجِلْتِرَا يُحَاصِرُ السَّوَاحِلَ، وَكَانَ أَبْنَاءُ مِصْرَ يَوَدُّونَ لَوْ أَنَّهُمْ قَامُوا بِذَلِكَ، بَدَلاً مِنَ الإِنْجِلِيزِ، وَقَدْ شَعَرُوا بِالارْتِيَاحِ لِمَا حَدَثَ، بَلْ لَعَلَّهُمْ فَرِحُوا وَابْتَهَجُوا عَلَى غَيْرِ مَا تَوَقَّعَ نَابِلْيُونُ وَالْفَرَنْسِيُّونَ الَّذِينَ كَانُوا يَظُنُّونَ أَنَّ الْمَسِيحِيِّينَ الْمِصْرِيِّينَ سَوْفَ يَتَعَاوَنُونَ مَعَهُمْ ، لَكِنَّ هَؤُلاءِ قَاوَمُوا الْحَمْلَةَ وَإِنْ حَاوَلَ أَحَدُهُمْ اسْمُهُ يَعْقُوبُ أَنْ يَتَقَرَّبَ إِلَيْهِمْ،

وَيَفْتَحَ بَيْتَهُ لِقَادَتِهِمْ وَضُبَّاطِهِمْ، مُدَّعِيًا أَنَّهُ يُحَاوِلُ أَنْ يُخَفِّفَ مِنْ عُنْفِهِمْ وَضَرَاوَتِهِمْ مَعَ أَبْنَاءِ بَلَدِهِ وَإِذَا بِهَؤُلاءِ يُقَاطِعُونَهُ.. وَقَدْ مَنَحَهُ نَابِلْيُونُ لَقَبَ جِنِرَال، وَتَنَدَّرَ بِهِ الْمِصْرِيُّونَ وَعِنْدَمَا حَانَتْ سَاعَةُ جَلاءِ الْفَرَنْسِيِّينَ صَحِبُوهُ مَعَهُمْ فِي أُسْطُولِهِمْ لأَنَّ بَقَاءَهُ فِي مِصْرَ كَانَ مَعْنَاهُ الْقَضَاءَ عَلَيْهِ، وَكَانَ كُلُّ مَنْ يَرَاهُ فِي الطَّرِيقِ لِلسَّفِينَةِ يَرْكَبُهَا يَبْصُقُ عَلَيْهِ..

وَقَدْ ظَنَّ الرَّجُلُ أَنَّهُ سَيَعِيشُ مُكَرَّمًا مُعَزَّزًا فِي فَرَنْسَا، لَكِنَّهُ مَاتَ عَلَى ظَهْرِ السَّفِينَةِ، وَكَانَ الْعُرْفُ أَنْ يُلْقُوا بِجُثْمَانِهِ فِي الْبَحْرِ الْمُتَوَسِّطِ لِيَكُونَ طَعَامًا لأَسْمَاكِهِ الَّتِي أَظُنُّ أَنَّهَا لَمْ تَسْتَرِحْ لِطَعْمِهِ...

نَحْنُ لا نَسْرُدُ التَّارِيخَ هُنَا وَفْقَ تَوَالِي الأَحْدَاثِ، نَرْوِي كُلَّ مَا حَدَثَ عَلَى حِدَةٍ وَنَسْتَكْمِلُهُ.. عَلَى غَيْرِ الطَّرِيقَةِ الَّتِي تَدْرُسُونَ بِهَا فِي الْمَدْرَسَةِ.

وَنَحْكِي الآنَ حِكَايَاتٍ رَائِعَةً عَنْ أَبْطَالٍ مِنْ غَيْرِ الْمِصْرِيِّينَ شَارَكُوهُمْ فِي الدِّفَاعِ عَنِ الْوَطَنِ.. هُمْ مِنَ الْعَرَبِ وَالْمُسْلِمِينَ، فَقَدْ عَرَفَتْ مِصْرُ الْعُرُوبَةَ وَانْتَمَتْ إِلَيْهَا، وَالإِسْلامَ وَقَدِ اعْتَنَقَهُ أَغْلَبُهُمْ.. وَذَلِكَ قَبْلَ قُدُومِ نَابِلْيُونَ إِلَى مِصْرَ.. عَرَفَتْ بِلادُنَا الإِسْلامَ بِلا مَذَاهِبَ، وَالْعُرُوبَةَ دُونَ أَحْزَابٍ وَشِيَعٍ قَبْلَ أَلْفِ عَامٍ مِنْ قُدُومِ الْفَرَنْسِيِّينَ إِلَى مِصْرَ..

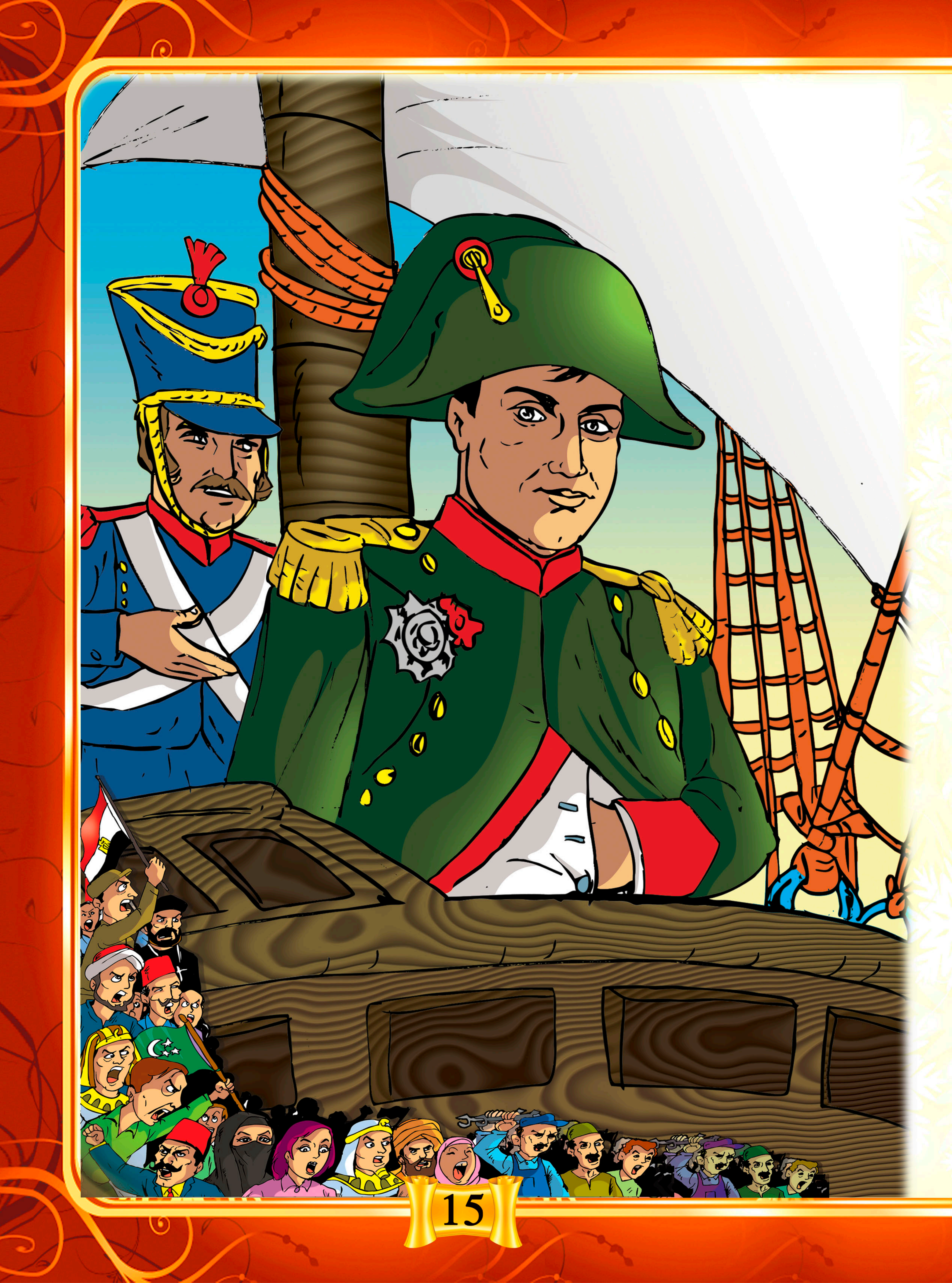
سَتَكُونُ بَعْضُ الأسْمَاءِ مُفَاجَأةً كَبِيرَةً لَكُمْ لأنَّكُمْ رُبَّمَا لَمْ تَسْمَعُوا بِهَا، وَإنْ عَرَفْتُمْ عَدَدًا مِنْهَا.

فَكَّرَ نَابلْيُونُ فِي أنْ يَفُكَّ الْحِصَارَ الَّذِي وَجَدَ نَفْسَهُ وَجُنُودَهُ فِيهِ، فَقَدْ كَانَ دَائِمًا طَمُوحًا، وَرَأى أنْ يَغْزُوَ الشَّامَ وَسُورِيَا، فَصَحِبَ جُنُودَهُ وَزَحَفَ عَلَى فِلَسْطِينَ.. وَاجْتَازَ غَزَّةَ فِي طَرِيقِهِ إلَى عَكَّا وَكَانَتْ مُفَاجَأةً قَاسِيَةً لَهُ أنْ يَتَصَدَّى لَهُ حَاكِمُهَا أحْمَدُ بَاشَا الْجَزَّارُ الَّذِي حَالَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ دُخُولِهَا فَارْتَدَّ مَهْزُومًا..

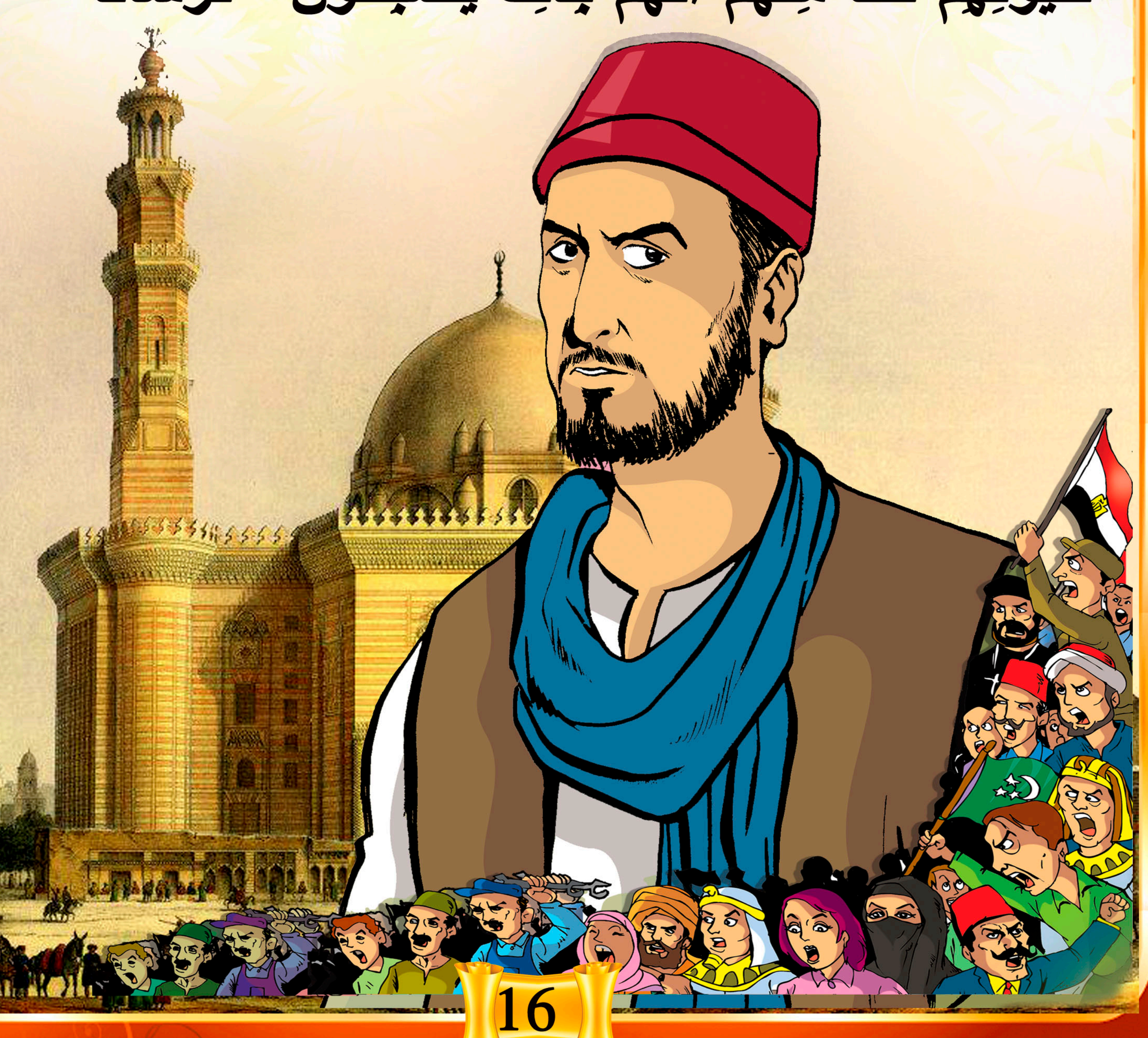
وَلَكِنَّ إبْرَاهِيمَ بَاشَا ابْنَ مُحَمَّدِ عَلِيٍّ بَعْدَ ذَلِكَ بِسَنَوَاتٍ قَلِيلَةٍ اقْتَحَمَهَا وَفَتَحَهَا فِي طَرِيقِهِ لِقِتَالِ الْعُثْمَانِيِّينَ.. وَقَدْ صَارَ فَتْحُ عَكَّا مَثَلاً شَعْبِيًّا لِلْمِصْرِيِّينَ يُقَالُ لِمَنْ قَامَ بِعَمَلٍ يَرَاهُ صَعْبًا وَمُسْتَحِيلاً وَتَرَدَّدَ عَلَى ألْسِنَةِ النَّاسِ:

- فُلانٌ يَظُنُّ نَفْسَهُ فَتَحَ عَكَّا

لَقَدْ فَشِلَ نَابلْيُونُ فِي ذَلِكَ بِسَبَبِ الْمُقَاوَمَةِ الْبَاسِلَةِ لِلْجَزَّارِ وَجُنُودِهِ الَّذِينَ رَدُّوا الْفَرَنْسِيِّينَ عَلَى أعْقَابِهِمْ وَمَا كَانَ أغْنَاهُمْ عَنْ كُلِّ هَذَا لَوْلاَ أنَّهُمْ تَخَلَّوْا عَنْ مَبَادِئِ ثَوْرَتِهِمْ (الْحُرِّيَّةُ ــ الإخَاءُ ــ الْمُسَاوَاةُ)



وَأَنْتُمْ بِالطَّبْعِ سَمِعْتُمْ بِالْبَطَلِ الرَّائِعِ: سُلَيْمَانَ الْحَلَبِيِّ، وَوَاضِحٌ مِنْ لَقَبِهِ أَنَّهُ مِنْ أَبْطَالِ حَلَبَ الَّتِي تَقَعُ فِي شَمَالِ سُورِيًّا.. وَقَدْ جَاءَ إِلَى مِصْرَ، بَلَدِ الأَزْهَرِ الشَّرِيفِ لِيَتَلَقَّى فِيهِ الْعِلْمَ عَلَى يَدِ عُلَمَائِهِ الأَجِلاءِ، وَقَدْ تَحَوَّلَ مِنْ جَامِعٍ وَجَامِعَةٍ لِلْعِلْمِ إِلَى مَعْقِلٍ لِلثَّوْرَةِ وَإِلَى قِيَادَتِهَا ضِدَّ نَابلْيُونَ وَالْفَرَنْسِيِّينَ وَإِذَا بِهِمْ يَدْخُلُونَ إِلَيْهِ عَلَى ظُهُورِ خُيُولِهِمْ ظَنًّا مِنْهُمْ أَنَّهُمْ بِذَلِكَ يُصْبِحُونَ " فُرْسَانًا "



وَإِذَا بِهَذَا الَّذِي فَعَلُوهُ يَزِيدُ الثَّوْرَةَ اشْتِعَالاً.. وَيَتَحَوَّلُ أَسَاتِذَتُهُ وَشُيُوخُهُ وَطُلابُهُ إِلَى أَبْطَالٍ نَذَرُوا أَنْفُسَهُمْ لِتَحْرِيرِ مِصْرَ وَإِجْلاءِ الْمُسْتَعْمِرَ.. وَاضْطُرَّ نَابِلْيُونُ إِلَى الْهَرَبِ مِنْ جَحِيمِ مِصْرَ عَلَى وَاحِدَةٍ مِنْ سُفُنِهِ الْبَحْرِيَّةِ، نَجَحَتْ فِي الإِفْلاتِ مِنْ حِصَارِ الأُسْطُولِ الْبرِيطَانِيِّ،



وَنَجَحَ فِي الْعَوْدَةِ إِلَى فَرَنْسَا لِيَقُودَ جُيُوشَهَا لِغَزْوِ أُورُوبَّا، وَتَرَكَ قِيَادَةَ جَيْشِهِ إِلَى الْجِنِرَالِ كليبر، الَّذِي أَطْلَقَ جُنُودَهُ لِقَتْلِ الثُّوَّارِ فِي مُحَاوَلاتٍ يَائِسَةٍ لِلنَّجَاةِ بِأَنْفُسِهِمْ، وَغَضِبَ الْحَلَبِيُّ الْبَطَلُ لِهَذِهِ التَّصَرُّفَاتِ الرَّعْنَاءِ مِنْ جَانِبِ كليبر فَتَرَبَّصَ لَهُ فِي حَدَائِقِ الأَزْبَكِيَّةِ الشَّهِيرَةِ وَنَجَحَ- وَمَعَهُ اثْنَانِ مِنْ غَزَّةَ وَاثْنَانِ مِنَ الْمِصْرِيِّينَ- فِي أَنْ يَنْتَقِمَ لِعُرُوبَتِهِ وَدِينِهِ وَأَغْمَدَ خَنْجَرَهُ فِي قَلْبِ الْقَائِدِ، وَأَرْدَاهُ قَتِيلاً وَأَمْسَكَ بِهِ الْفَرَنْسِيُّونَ وَقَتَلُوهُ حَيْثُ أَجْلَسُوهُ عَلَى خَازِقٍ اخْتَرَقَ جِسْمَهُ..

وَمَاتَ بَطَلاً شَهِيدًا دِفَاعًا عَنْ دِينِهِ وَأُمَّتِهِ، مَعَ دُعَاءِ الْجَمِيعِ لَهُ بِالْجَنَّةِ. وَفِي الْكَعْبَةِ الْمُشَرَّفَةِ وَقَفَ عَرَبِيٌّ مُسْلِمٌ مُؤْمِنٌ يَمْسِكُ بِأَسْتَارِ الْكَعْبَةِ وَيُخَاطِبُ الَّذِينَ يَدُورُونَ حَوْلَهَا:

- الْفَرَنْسِيُّونَ جَاءُوا بِأَسَاطِيلِهِمْ وَجُنُودِهِمْ لِكَيْ يَحْتَلُّوا مِصْرَ، بَلَدِ الأَزْهَرِ الشَّرِيفِ، الَّذِينَ دَخَلُوا إِلَيْهِ بِخُيُولِهِمْ..

تَوَقَّفَ الْجَمِيعُ لِيَسْتَمِعُوا إِلَى "" الْجِيلانِيِّ "" أَوْ "" الْكِيلانِيِّ "" الَّذِي رَاحَ يَحْكِي لَهُمْ عَنْ فَظَائِعِ الْحَمْلَةِ الْفَرَنْسِيَّةِ عَلَى مِصْرَ وَسَمِعُوهُ يَقُولُ فِي ثِقَةٍ وَإِخْلاصٍ:

- مَنْ يُرِيدُ أَنْ يُشَارِكَنِي الدِّفَاعَ عَنْ مِصْرَ..

وَارْتَفَعَتِ الأَصْوَاتُ فِي الْحَرَمِ الشَّرِيفِ تُرَدِّدُ.

- نَحْنُ مَعَكَ..

صَرَخَ: هَاتُوا أَسْلِحَتَكُمْ لِنُجَاهِدَ فِي سَبِيلِ اللهِ.. وَإِذَا بِمِئَاتِ الشَّبَابِ يَأْتُونَ بِمَا لَدَيْهِمْ مِنْ سِلاحٍ، وَمَالٍ وَسَارُوا خَلْفَهُ فِي طَرِيقِهِمْ إِلَى مِينَاءِ يَنْبُعَ حَيْثُ تَرَسُوا سُفُنًا قَادِرَةً عَلَى أَنْ تَعْبُرَ الْبَحْرَ الأَحْمَرَ إِلَى مَوَانِئَ مِصْرِيَّةٍ تَقَعُ عَلَيْهِ.. رَكِبُوهَا بِسَلامِ اللهِ وَوَصَلُوا لِكَيْ يَقْطَعُوا الصَّحْرَاءَ وَيَشْتَرُونَ خَيْلاً فِي طَرِيقِهِمْ لِلانْضِمَامِ إِلَى أَبْنَاءِ الصَّعِيدِ الَّذِينَ يُقَاوِمُونَ الْفَرَنْسِيِّينَ



وَلا شَكَّ أَنَّهُمْ سَمِعُوا بِحِكَايَةِ عَبْدِ السَّتَّارِ آدَمَ وَأَكْبَرُوا بُطُولَتَهُ.. وَسَرْعَانَ مَا رَاحُوا يُهَاجِمُونَ مُعَسْكَرَاتِ الْفَرَنْسِيِّينَ وَخِيَامَهُمْ وَهُمْ يَرْفَعُونَ شِعَارَ (الْمَوْتُ فِي سَبِيلِ اللهِ أَسْمَى أَمَانِينَا)..

وَاسْتُشْهِدَ الْجِيلانِيٌّ وَبُنِيَ لَهُ ضَرِيحٌ وَمَسْجِدٌ، وَالْبِنَاءُ قَائِمٌ إِلَى الْيَوْمِ يَسْتَقْبِلُ الْمُصَلِّينَ وَالزَّائِرِينَ إِلَى يَوْمِنَا هَذَا.. رَغْمَ أَنَّ الْكَثِيرَ مِنْهُمْ لا يَعْرِفُونَ حِكَايَةَ نِضَالِهِ وَاسْتِشْهَادِهِ..

رُبَّمَا تَتَسَاءَلُونَ:

- وَمَاذَا عَنِ الْعِرَاقِ:

جَاءَ الْجَوْسَقِيُّ مِنْ بَغْدَادَ إِلَى الْقَاهِرَةِ لِيُوَاصِلَ الدِّرَاسَةَ فِي الأَزْهَرِ الشَّرِيفِ، وَهُوَ فَاقِدُ الْبَصَرِ، وَسَرْعَانَ مَا أَصْبَحَ شَيْخَ طَائِفَةِ الْعُمْيَانِ كَمَا كَانَ يُطْلَقُ عَلَيْهِ، وَلأَوَّلِ مَرَّةٍ تُصْبِحُ هَذِهِ مِيزَةً كَبِيرَةً، فَلَمْ يَهْتَمَّ بِهِ الْفَرَنْسِيُّونَ، وَهُوَ يَنْتَقِلُ بَيْنَ مَجْمُوعَاتِ الْمُقَاوَمَةِ حَامِلاً التَّعْلِيمَاتِ وَالأَخْبَارَ، وَالأَخْطَرُ مِنْ ذَلِكَ حَامِلاً السِّلاحَ وَالذَّخِيرَةَ مِنْ أَمَاكِنِ تَصْنِيعِهَا إِلَى مَنْ يَحْتَاجُونَ إِلَيْهَا مِنَ الأَبْطَالِ الَّذِينَ يُحْسِنُونَ اسْتِخْدَامَهَا، وَكَمْ حَذَّرَهُمْ مِنْ أَخْطَارٍ يَتَفَادُونَهَا وَنَبَّهَهُمْ إِلَى أَمَاكِنَ ضَعْفٍ هَاجَمُوهَا، فَأَسَرُوا الأَعْدَاءَ

أوْ أرَاحُوا الأرْضَ وَطَهَّرُوهَا مِنْهُمْ.. وَلَمْ يَحْدُثْ مَرَّةً أنْ تَشَكَّكُوا فِيهِ، بَلْ كَانُوا أحْيَانًا يَأْخُذُونَ بِيَدِهِ لِتَوْصِيلِهِ إلَى حَيْثُ يُرِيدُ.

وَكَانَ لِلْجَارَةِ الْغَرْبِيَّةِ لِمِصْرَ دَوْرٌ تَرَكَّزَ فِي شَخْصٍ اسْمُهُ " الْمَغْرِبِيُّ مُحَمَّدٌ " قَرَّرَ أنْ يَحُجَّ إلَى بَيْتِ اللهِ فِي مَكَّةَ عَلَى رَأسِ قَافِلَةٍ طَوِيلَةٍ، وَلا بُدَّ لِكَيْ تَصِلَ إلَى مَكَّةَ مِنْ أنْ تَمُرَّ بِمِصْرَ.. وَعِنْدَمَا وَصَلَتْ إلَى مَدِينَةِ دَمَنْهُورَ عَاصِمَةِ الْبحيرَةِ كَانَ الأسْطُولُ الْفَرَنْسِيُّ قَدْ ضَرَبَ الإسْكَنْدَرِيَّةَ، وَبَدَأ يَبْحَثُ عَنْ جِمَالٍ يَسْتَخْدِمُهَا الْجُنُودُ لِحَمْلِ الأسْلِحَةِ وَالذَّخِيرَةِ، وَكَانَ " الْمَغْرِبِيُّ مُحَمَّدٌ " وَقَافِلَتُهُ تُرِيدُ أنْ تَشْتَرِيَ بَعْضَهَا لِكَيْ تَسْتَعِينَ بِهَا، وَكَانَتْ مُفَاجَأةً لِهَؤُلاءِ وَأولَئِكَ أنِ اخْتَفَتْ كُلُّ الْجِمَالُ مِنَ الإسْكَنْدَرِيَّةِ وَالْبحيرَةِ، ذَلِكَ أنَّ أهْلَهَا قَامُوا بِتَهْرِيبِهَا إلَى الْجَنُوبِ خَشْيَةَ اسْتِيلاءِ الْفَرَنْسِيِّينَ عَلَيْهَا بِتَعْلِيمَاتٍ مِنْ " مُحَمَّدٍ كَرِيمٍ " وَقَرَّرَ الْمَغْرِبِيُّ مُحَمَّدٌ ألا يُوَاصِلَ السَّيْرَ بِقَافِلَتِهِ إلَى مَكَّةَ، بَلْ أقَامَ وَكُلُّ مَنْ مَعَهُ فِي دَمَنْهُورَ، وَفِي أثْنَاءِ زَحْفِ الْفَرَنْسِيِّينَ إلَى الْقَاهِرَةِ تَصَدَّوْا لَهُمْ وَقَامَتْ مَعْرَكَةٌ كَبِيرَةٌ بَيْنَهُمَا وَنَجَحَ الْعَازِمُونَ عَلَى الْحَجِّ فِي وَقْفِ الزَّحْفِ،

وَإنْ أعْلَنَ الْفَرَنْسِيُّونَ عَنْ مَصْرَعِ " الْمَغْرِبِيِّ مُحَمَّد ".. وَصَدَّقَهُمْ كَثِيرُونَ فَمَا كَانَ أبْنَاءُ لِيبْيَا مُهَيَّئِينَ لِلْقِتَالِ وَلَمْ يَكُنِ السِّلاحُ فِي أيْدِيهِمْ كَافِيًا لَكِنَّهُمُ انْتَصَرُوا بِفَضْلِ اللَّهِ، وَلأنَّهُمْ آمَنُوا بِأنَّ الْحَجَّ قَدْ كُتِبَ لَهُمْ لأنَّهُمْ جَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ.



وَعِنْدَمَا تَجَدَّدَتِ الثَّوْرَةُ وَهَبَّتْ وَبِالذَّاتِ فِي حَيِّ بَابِ الشّعْرِيَّةِ فُوجِئَ أَهْلُهَا أَنَّ الْمَغْرِبِيَّ مُحَمَّدًا يُشَارِكُهُمْ وَأَفْرَادُ قَافِلَتِهِ الَّذِينَ يَزِيدُونَ عَلَى السِّتِّمِائَةِ فِي قِتَالِ الْفَرَنْسِيِّينَ، وَكَانَ الإِعْلانُ عَنْ وُجُودِهِ بَيْنَهُمْ فَرْحَةً كَبِيرَةً بَعْدَ أَنْ وَصَلَتْ أَخْبَارُ مَعْرَكَةِ دَمَنْهُورَ إِلَيْهِمْ..

وَمِنَ الْغَرِيبِ الْمُذْهِلِ أَنْ يَصْدُرَ كِتَابٌ فِي صَنْعَاءَ بِعُنْوَانِ " نُصُوصٌ يَمَنِيَّةٌ عَنِ الْحَمْلَةِ الْفَرَنْسِيَّةِ عَلَى مِصْرَ " نَشَرَهُ وَحَقَّقَهُ وَضَاهَاهُ بِمَا جَاءَ فِي الْجَبَرْتِيِّ الدُّكْتُورُ سَيِّدُ مُصْطَفَى سَالِمٍ فِي طَبْعَتَيْنِ: الأُولَى صَدَرَتْ عَامَ 1974م وَالثَّانِيَةُ صَدَرَتْ فِي 1989م عَنْ طَرِيقِ " مَرْكَزِ الدِّرَاسَاتِ الْيَمَنِيَّةِ " لِتُؤَكِّدَ مَا رَوَيْنَاهُ لَكُمْ..

مِصْرُ أُسْتَاذَةٌ لِلثَّائِرِينَ، وَمُعَلِّمَةٌ لَهُمْ.. بِمَا فِي ذَلِكَ أَصْحَابِ مَا يَرَوْنَهَا أَعْظَمَ ثَوْرَاتِ أُورُبَّا وَالتَّارِيخ وَنَقْصِدُ بِهَا الثَّوْرَةَ الْفَرَنْسِيَّةَ.

" وَأَصْبَحَتِ الأَرْضُ تَدُورُ مِثْلَ عَجَلَةِ صَانِعِ الْفَخَّارِ "

ايبُورُ
الْحَكِيمُ الْمِصْرِيُّ الْقَدِيمُ

عَلَى وَرَقِ الْبَرْدِيِّ وَرَدَتْ هَذِهِ الْكَلِمَاتُ وَصَاحِبُهَا يَرْوِي حِكَايَةَ أَوَّلِ ثَوْرَةٍ فِي التَّارِيخِ الإِنْسَانِيِّ حِينَ رَفَضَ بَنُو مِصْرَ حُكَّامَهَا الظَّالِمِينَ الَّذِينَ اسْتَأْثَرُوا بِالثَّرْوَةِ وَالسُّلْطَةِ، وَقَدِ اسْتَوْحَاهَا صَاحِبُهَا مِنَ الْبِيئَةِ، وَكَأَنَّمَا هِيَ نُبُوءَةٌ لاكْتِشَافِ أَنَّ الأَرْضَ تَدُورُ حَوْلَ نَفْسِهَا وَحَوْلَ الشَّمْسِ، لِيَحْدُثَ التَّغْيِيرُ: النَّهَارُ وَاللَّيْلُ، وَفُصُولُ الْعَامِ، وَانْتِصَارُ الشَّعْبِ عَلَى الْمُسْتَبِدِّينَ الْمُسْتَغِلِّينَ الطُّغَاةِ.. عِبَارَةٌ مُسْتَوْحَاةٌ مِنْ طِيبَةَ، أَرْضِ الْقُلَلِ الْقِنَاوِي تُؤَكِّدُ عَلَى أَنَّ مِصْرَ كَانَتِ الأُولَى فِي كُلِّ شَيْءٍ، وَالْمُبْدِعَةَ دَائِمًا لِقِيَمِ الْحَضَارَةِ وَأُسُسِهَا، وَقِيَمِ الثَّوْرَةِ عَلَى الْحُكَّامِ الظَّالِمِينَ.

" نَحْنُ لَمْ نَسْتَسْلِمْ لَكُمْ
وَلَمْ نُسَلِّمْكُمْ زِمَامَنَا
يَا سَادَتَنَا الْحُكَّامِ
وَلَنْ نَحْنِيَ الرُّؤُوسَ لِلْوَرِيثِ أَيًّا كَانَ "

كَانَ هَذَا مَخْطُوطًا عَلَى وَرَقِ بَرْدِيٍّ يُؤَكِّدُ أَنَّنَا تَوَارَثْنَا الثَّوَرَاتِ، بِأَكْثَرَ مِمَّا تَوَارَثْنَا الْفَرَاعِينَ وَالأَبَاطِرَةَ، وَالْقَيَاصِرَةَ، وَالْوُلاةَ وَالطُّغَاةَ..

نَصْبِرُ طَوِيلاً، ثُمَّ نَهُبُّ إِعْصَارًا يَكْتَسِحُ فِي وَجْهِهِ كُلَّ شَيْءٍ.

***